الإسلام والحداثة وما بعد الحداثة

لقد نجح الغرب في إقصاء الكنيسة عن الحياة بمختلف أطيافها، وتحققت برامج النهضة الصناعية في القرون الثلاثة الماضية، لأنه لا يوجد في المسيحية نظام معين للحياة العامة، فانبرى الفلاسفة والحكماء لإيجاد مرجعية للتطور، تحت أسماء جديدة كالتحديث والحداثة ونظريات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وحوار الحضارات وصدامها والعولمة أو النظام العالمي الجديد، حتى إن كل تلك المرجعيات انهارت وكاد أن يسقط النظام الرأسمالي في ظل الأزمة الاقتصادية العالمية في عام ٢٠٠٨-٢٠١١م، لاحقاً بالنظام الماركسي عام ١٩٨٩م، وهرع الكتّاب والصحفيون إلى تدبيج المقالات وإصدار الكتب حول هذه المرجعية الغربية، وتحليل ظواهرها، وتبيان إيجابياتها وسلبياتها، ولا تكاد تجد مكتبة إلا وفيها كتب عن هذه العناوين[1]، غير مدركين أنها تصلح للدول الغربية، ولا يحتاج إليها الإسلام والمسلمون لغناهم في الأصول والمبادئ وأنظمة الحياة الموجودة في وحي الله عز وجل في القرآن المجيد.

وها أنا أتكلم بإيجاز على الحداثة وصداها لدى المسلمين، ومخاطرها وسلبياتها في الوسط العربي والإسلامي القائم على المفهوم الديني الذي لا تنفصل فيه الدولة عن الدين.

أورد الدكتور باسم خريسات عدة تعاريف للحداثة وانتقدها، قائلاً بعد تلك

---

(١) ولدي أربعة كتب صادرة عن دار الفكر بدمشق في موضوع الحداثة والعولمة هي: (العولمة والإسلام) أ-د سيف الدين عبد الفتاح، إعداد مجموعة باحثين بتحرير د: منى أبو الفضل، د: فادية محمود مصطفى، (الحداثة وما بعد الحداثة) د: عبد الوهاب المسيري، د: فتحي التريكي، (ما بعد الحداثة) د: باسم علي خريسات، (ضيوف ما بعد الحداثة) د: حسام السعيد.

التعاريف: لا يمكن أن يكون للحداثة تعريف محدد، لكونها عملية متحركة تعمل على تكييف نفسها مع كل مستجد يطرأ عليها، لذا عند قراءة أبرز التعاريف التي أعطيت إليها، نجدها لا تتسم بالشمول، فنجدها عند كاتب ليست أكثر من باعث على الحركة فهي عند بعضهم «حركة ذاتية تولد نفسها بشكل ذاتي، والتقدم هو حركة لأصل الحركة، إنها حركة تستهدف زيادة القدرة على الحركة». في حين نجد آخر يراها حركة تفكيكية «تستمد معناها وقوى دفعها من رفض أو نفي ما حدث قبلاً». وعند آخر هي: «تصور معين للحاضر الذي نعيش فيه». وعند رابع يرى فيها «عبادة الجديد من أجل الجديد».. إلخ.

هذه التعاريف يغلب عليها التصور الجزئي للحداثة، والتعريف الأكثر شمولية هو: «إن الحداثة ليست مفهوماً اجتماعياً، ولا مفهوماً سياسياً، ولا مفهوماً تاريخياً بدقة التعبير، إنها نمط حضاري متميز يناقض النمط التقليدي، وهي تتميز في كل الميادين أنها دولة حديثة، موسيقا ورسم حديثان، عادات وأفكار حديثة، وهي متحركة في صيغتها وفي مضامينها، في الزمان والمكان، وليست ثابتة، وبهذا هي تشبه التقليد».

وفي تعريف آخر مشابه، هي: «سلسلة من التحولات في المجتمع المعاصر قائمة على أساس التمدن، والتصنيع، والعلم والتكنولوجية، والتي أصبحت أساساً لفكرة الشك الديني، وعدم الاعتقاد بصحة الكتب المقدسة». وهذا من دون شك بحسب تصور الغربيين للتوراة والإنجيل (العهد القديم والجديد).

وهي عند سامي أدهم: «نظرة فلسفية شاملة إلى العالم مبنية على العقل، والمبدأ الأهم في تلك النظرة هو النظام القائم على مبدأ عدم التناقض، وعلى استخدام العقل في الأبحاث والقضايا والمناهج»[1].

أي إن الحداثة في رأي هؤلاء عمل خلاق مبدع، ومتطور، وعبادة الجديد، وهي قائمة على رفض معطيات الدين، وتحكيم العقل مطلقاً، والالتزام بقوانين

(١) انظر كتابه السابق: ص٤٥-٤٧.

ونظريات العلم التجريبي الذي قامت عليه النهضة الأوربية المعاصرة بدءاً من أواسط القرن السادس عشر وإلى قرننا الحادي والعشرين.

والحداثة تتميز عن التحديث الذي هو عبارة عن مجموعة من التغييرات التي تشهدها المجتمعات، ولكنها ليس من الضروري أن تعد مجتمعات حداثية[١].

وللحداثة أوصاف ثلاثة هي[٢]:

١- إن الحداثة ليست مجموعة شكليات وعناوين ذات المضمون الضحل، إنما هي مرحلة تبلغها المجتمعات من خلال عملية التراكم التاريخي، والجهود التي يبذلها أبناء المجتمع في سبيل الخروج من تقصير الإنسان في وصف نفسه، وعجزه عن استخدام عقله وإمكاناته في سبيل البناء.

٢- إن أكثر ما تتطلبه الحداثة للنمو والبروز في أي حركة اجتماعية: الحرية، بمعنى الاستخدام، ولهذا نجد في التجربة الأوربية أن هناك علاقة طردية، تربط مستوى الحداثة مع انبثاق مبادئ حقوق الإنسان، والفلسفة العقلانية، وفكرة التقدم الاجتماعي.

٣- العقلانية: أي إن الحداثة تستعين بالعقل المجرد للوصول إلى درجة الكمال التي تسعى إليها الذات. يقول الفيلسوف (فيتو): «الحداثة هي أولوية الذات، انتصار الذات، ورؤية ذاتية للعالم» أي إن الحداثة تجديد، وتجاوز لمرحلة التقصير، وبناء أفضل للحياة علمياً وسياسياً، على أساس من تفتح العقل للوصول إلى درجة الكمال.

وهذا بذاته محور الأفكار والتصورات التي طرحت للحياة في عصر التنوير، والتي تبناها الفلاسفة لبناء الواقع وتحقيقه، وهي التي وحَّدت نظرياتهم الليبرالية في السياسة والقانون والتربية، ومنهم مونتسكيو، فولتير، وهيوم، وروسوم، وآدم سميث وغيرهم من فلاسفة التنوير. والثورة الفرنسية ١٧٨٩م باعتبارها نتاج

(١) د: باسم علي خريسات: ص٤٣.

(٢) المرجع السابق: ص٤٨ وما بعدها.

التنوير مثَّلث نقطة تحول في المشروع الحداثي الأوربي التي «دعت لتأسيس مجتمع علماني يبعد الدين (أي الدين المسيحي) عن الحياة، وأبدلت الصلات والمؤسسات والأبنية والأحكام الدينية بهياكل تسعى إلى تحقيق شعارات دنيوية بحتة، تتمثل في الحرية والإخاء والمساواة، قائمة على إنسانية الإنسان فقط» بهذا كانت حركة التنوير بالفعل مرحلة الولادة للحداثة، لكونها قدمت الزاد الفكري الذي سوف تؤسس الحداثة عليه بنيانها[١].

والأفكار الأساسية لعصر التنوير تتمثل في النقاط التالية[٢]:

١- أن هناك ذاتاً مستقرة ومتماسكة ومعروفة، وهي ذات واعية وعقلانية ومستقلة وكونية.

٢- هذه الذات تدرك نفسها، وتدرك العالم عن طريق العقل المفكر.

٣- وهذا النمط من الإدراك الناتج عن الذات العاقلة الموضوعية (العلم) هو الذي يمكن أن يوفر الحقائق الشاملة عن العالم.

٤- المعرفة الناتجة عن العلم هي «حقيقة».

٥- إن المعرفة أو الحقيقة التي ينتجها العلم، (عن طريق الذات العاقلة الموضوعية العارفة) ستقود دائماً الإنسان نحو التقدم والكمال.

٦- العقل هو الحكم النهائي الذي يحدد ما هو حقيقي، وما هو صحيح، وما هو جيد، وما هو أخلاقي وما هو قانوني، والحرية تقوم على طاعة القوانين التي تتطابق مع المعرفة المكتشفة من قبل العقل.

٧- في عالم يحكمه العقل، ستكون الحقيقة دائماً في الحق والخير، وهي الجمال.

٨- العلم: هو الأنموذج لكل أشكال المعرفة المفيدة اجتماعياً، والعلم يتسم بالحيادية والموضوعية.

---

(١) المرجع نفسه: ص٣٩.

(٢) المرجع نفسه: ص٣٩-٤٠.

٩- يجب أن تكون اللغة أو طريقة التعبير المستخدمة في إنتاج ونشر المعرفة عقلانية أيضاً، ولكي تكون اللغة عقلانية لا بد أن تتسم بالوضوح، ولا بد أن تعبّر عن العالم الحقيقي المدرك الذي يلاحظ فقط.

وأما ما قبل الحداثة فكانت أوربة قبل حداثتها تعيش في أطر ومرجعيات وبيئة مغايرة لمرحلة الحداثة، وكانت تلك البيئة محكومة بمجموعة من البنى والأنساق الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بل حتى النفسية، وهي التي صبغت تلك الفترة في أوربة، والتي لا يمكن أن تحسب من التاريخ الأوربي، وهي التي كانت وراء تحديد نظرة الإنسان للوجود وغايته وأصل المعرفة والأخلاق، والتي في ضوئها تتحدد علاقة الإنسان مع الطبيعة، والإنسان والمجتمع[١].

وأما تيار ما بعد الحداثة فينتقد جُل مفاهيم الحداثة الغربية وقيمها، بحجة خيانتها لأهدافها، إذ أفرزت الحداثة الأوربية الأنظمة الشمولية، كالفاشية والنازية والعنصرية والشيوعية، أي إنها أنتجت إيديولوجيات جامدة، أفرزت تحليلات مغلقة، مما أدى إلى دوغمائية الفكر والإيديولوجية.

ولم يتوقف الأمر عند هذا، فالحداثة التي بشّرت بالعقلانية والانفتاح والتحرر، قولبت الإنسان في قوالب جاهزة تحت تسميات متعددة. أفرز ذلك سيلاً من الأسئلة حول ما تبقى من فلسفة الحداثة وتبشيراتها، مثل سؤال عن مشروعية الحقائق المفرزة (المكرَّسة) والثابتة.

طالب منظّرو ما بعد الحداثة بالعودة إلى الأهداف الخاصة بالحداثة، والتي لم تتحقق، مثل الانفتاح والمرونة الفكرية، وعدم الاعتماد على التفسيرات الأحادية التي تحمل في مضمونها إرهاباً واضحاً، سمي (الإرهاب الفكري).

وتبدو العولمة، وكأنها البعد الحياتي/المعيش، في مقابل ما بعد الحداثة، كبعد فكري/ثقافي[٢].

---

(١) المرجع نفسه: ص٢٣.

(٢) ضيوف ما بعد الحداثة، د: حسام السعد: ص١٣٥-١٣٧.

أما مصطلح ما بعد الحداثة فهو مرادف لمصطلح (التفكيكية) بعد ظهور وسقوط (الفلسفة البنيوية)، أي إن (ما بعد الحداثة) هي ملامح وأهداف هذه الفلسفة، فهي تقوم بتفكيك الإنسان، كما أنها منهج لقراءة النصوص يستند إلى هذه الفلسفة[١].

وفلسفة ما بعد الحداثة قامت على انقراض القيم التي أسستها الحداثة كفكرة التقدم والحقوق، مما أدى إلى فراغ حاولت المعقولية الغربية أن تملأه بقيم تجارية دنيوية وبرغماتية، وهي طريقة جديدة تعتمد مقياس قيمة التبادل أنموذجاً أوحد للتواصل البشري، حتى إن الأفراد في المجتمع الغربي أصبحوا يمثلون ذرّات مستقلة لا تربطها إلا علاقة الحاجة والمصلحة، فكأن هناك انتصاراً للفرد ضد المجموعة أو الجماعة، وكأن الحرية الفردية هي المجال الذي تمتد ضمنه جميع الأفعال والقيم من أبسطها إلى أعقدها.

وهذا في الواقع أساس النظام الرأسمالي الذي يجعل مصلحة الفرد وحريته محور الاقتصاد الرأسمالي، ولكن الجديد في العولمة يتمثل في محاولة أجهزة النظام السياسي والاستراتيجي الاستيلاء على القرار والإنتاج فيما يخص هذه القيم.

وأصبحت علاقتنا بالغرب تدخل ضمن توحّد الغرب في تدبير شؤون العالم، وصارت الولايات المتحدة الأمريكية هي التي تقرر المعايير الخاصة بالحقوق، وكيفية الدفاع عنها، كما تقرر الحرب والسلم في العالم، مما دعا مثلاً بعض المثقفين والسياسيين في فرنسة للبحث عن الاستثناء الثقافي من معطيات العولمة، لأن العولمة نفسها ولَّدت بعنفها الشديد وبفرضها على نمط الحياة عنفاً من نوع خاص، وحينئذ نقول: إن الإرهاب عملية لا أخلاقية يجب التنديد بها، ولكنها جاءت أيضاً ضد عملية لا أخلاقية وهي العولمة، ويجب أيضاً التنديد بها.

---

(١) الحداثة وما بعد الحداثة، د: عبد الوهاب المسيري: ص٨١.

وأصبحت القضية ليست قضية تصادم الحضارات، وليست الحرب القائمة اليوم في تقدير المفكرين هي حرب بين أمريكة والإسلام، فليس للإسلام من حيث هو دين، ولا من حيث هو حضارة صلة أوثق بالإرهاب مما نجده في المسيحية أو اليهودية، ولكن الحرب الآن هي بين العولمة وتوابعها ونتائجها، فنكاد نقول: إنها حرب داخلية عنيفة، يحاول العقل في صبغته الغربية تحويل وجهتها نحو خارجه، نحو بلد ظل بعيداً عن العولمة هي (أفغانستان) ونحو حضارة ظلت صامدة ضد كل مقومات ما بعد الحداثة ومن بينها العولمة، وأعني بها الحضارة الإسلامية[١].

والفرق ما بين الحداثة وما بعد الحداثة أن الحداثة تقر بوجود الإله في الديانات التوحيدية وعالم المثل، لكن عالم المادة يحجب عالم المثل، والمنظومة الأفلاطونية تذهب إلى أنه يمكننا التوصل إلى معرفة إنسانية من خلال الحواس والعقل ومن خلال اللغة، أي اعتبار الثنائية، أما مشروع ما بعد الحداثة فيحاول القضاء على الفكر الميتافيزيقي القائم على الإقرار بالذات الإلهية، وعلى أوهام الفلسفة الإنسانية الهيومانية بنحو كامل عن طريق القضاء على خرافة الحقيقة الكلية (الإله) والتوصل إلى تساوي كل الكائنات من جميع الوجوه (النساء، اليهود، الغجر، القرود، الشواذ جنسياً) وعالم ما بعد الحداثة هو عصر المابعديات وسقوط كل الماقبليات، واللغة ليست أداة لمعرفة الحقيقة، وإنما هي أداة لإنتاجها، والنموذج فيما بعد الحداثة الصراعية ليس اللغة، وإنما إرادة القوة والحرب والمعارك[٢].

وإن إعلان (فوكوياما) نهاية التاريخ هو إعلان نهاية الإنسان، وانتصار الطبيعة أو المادة، أي انتصار الموضوع (اللاإنساني) على الذات (الإنسانية) ومعناه تحول العالم بأسره إلى كيان خاضع للقوانين الواحدية المادية (التي تجسدها الحضارة الغربية) والتي لا تفرِّق بين الإنسان والأشياء والحيوان، والتي تحول

(١) الحداثة وما بعد الحداثة، د: فتحي التريكي: ص١٨٥، ١٨٩-١٩١.

(٢) المرجع السابق: د: المسيري: ص٨٣-٨٩.

العالم بأسره إلى مادة استعمالية، فنهاية التاريخ هي في واقع الأمر نهاية التاريخ الإنساني، وبداية التاريخ الطبيعي. وهذا يعني تصاعد الصراع بين الحضارات، أي عالم موت الإنسان بعد أن مات الإله[١].

والنظام العالمي الجديد الذي يدعو إلى الديمقراطية والمساواة، يجعل الغرب هو الممثل الحقيقي لحالة الطبيعة، وأن طريقة اللاغربي الحديث العلماني (الطبيعي أو المادي) هو الطريق الصحيح، بل الوحيد.

وبهذا المعنى يمكن القول بأن النظام العالمي الجديد هو إمبريالية عصر ما بعد الحداثة، إذ يجد الإنسان نفسه في عالم بلا تاريخ، وينزلق فيه الإنسان من الخصوصية الإنسانية والتاريخية إلى عالم الطبيعة أو المادة، والجسد والجنس، والبراز والعدمية، تحيط به إمبريالية شرسة، لا تسمِّي نفسها إمبريالية، وإنما (النظام العالمي الجديد).

إن ما بعد الحداثة ليست مجرد دعوة فلسفية عدمية، وإنما هي رؤية متكاملة للإنسان والكون، تبنّتها حضارة إمبريالية، تحاول باستمرار الهيمنة على العالم من خلال إغواء الآخر وتفكيكه، وتغليف ذلك بالشعارات الجميلة والأمنيات الطيبة[٢].

هذه النظريات الغربية الحديثة والقديمة كلها تعتمد على إنكار الإله، والإيمان بالإنسان، وبالطبيعة، وبالتسلط الأمريكي الغربي على العالم، وبالإغراق في لذائذ شهوانية عديمة القيم.

والحداثة تعني تأليه العقل، وما بعد الحداثة تعني تأليه الجسد والنشاط الجنسي الفوضوي، قال ليوتار أحد فلاسفة ما بعد الحداثة: إن الجسد أصبح أصل الفلسفة وأصل كل النشاطات الأساسية.

وصارت الحضارة الحديثة تدور حول الإنسان الطبيعي الذي يدور حول

---

(١) المرجع نفسه: ص١٦٠ ما بعدها.

(٢) المرجع ذاته: ص١٧٥-١٧٧.

جسده في إطار المنفعة واللذة. وفي مرحلة التقشف ظهر الإنسان الاقتصادي الباحث عن المنفعة المادية، فإذا ما حقق سعادته المادية بطش بالآخرين من خلال منظومته الإمبريالية، ولذا فهو إنسان يستخدم حواسه الخمس، جسده هو أساس رؤيته للكون، وإن كانت هناك أولوية لشيء فهي لجهازه الهضمي، وربما لعضلاته[1].

والحاصل: إن مادية الحضارة الغربية والحديثة قضت قضاءً مبرماً على روحانية الإنسان، وعلى الأديان، والقيم والأخلاق، وركزت على هيمنة الغرب على العالم، فلا تحتاج منا إلى المناقشة والرد، وأضحت هذه الحضارة من خلال نظريات الحداثة وما بعد الحداثة والنظام العالمي الجديد مهددة بالسقوط والانهيار، لمناقضتها الطبيعة الإنسانية، وتهديمها لأنظمة العالم غير الغربي، من خلال التركيز على السيطرة والهيمنة واستلاب خيرات العالم، وبوادر الانهيار ماثلة في الأزمة العالمية الاقتصادية.

(١) المرجع السابق: ص٣٧-٣٨.